دراسة لمسألة أول مخلوقات على ضوء حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه

إعداد:
د. حسين جليعب السعيدي
رئيس قسم العقيدة والدعوة
كلية الشريعة- جامعة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد (ﷺ)، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد:

لقد سلك القرآن الكريم منهجًا عجيبًا وسليمًا وقويمًا في إثبات ربوبية الله تعالى ووحدانيته من خلال مناقشة قضية الخلق بأدلة واضحة وبراهين ساطعة تقنع الفطر السليمة والعقول المستقيمة بتوحيد خالقها والإذعان لمنشئها دون أدنى تردد أو انحراف أو انتكاس في الفطرة، والآيات التي تتحدث عن خلق الله وبديع صنعه وتصريفه لأمور الكون كثيرة جدًا في كتاب الله، يذكر الله بها عباده ليزداد الذين آمنوا إيمانًا، وليوجه أبصار الجاحدين وبصائرهم، فنوح يذكر قومه قائلاً: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[1].

وإبراهيم يقول لقومه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[2].

وقد أطال القرآن الكريم في الحديث عن ربوبية الله والاحتجاج بمسألة الخلق على أهل الجاهلية المعترفين بالربوبية المشركين في الألوهية في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

(١) سورة نوح: آية ١٥-٢٠.

(٢) سورة الشعراء آية ٧٥-٨٢.

﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

ومخلوقات الله عز وجل لا يعدها ولا يحصيها إلا من خلقها، فهو من بدأها وهو من يعيدها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[2].

وثمة قضية تتعلق بهذا الأصل وهي: من أين بدأ الخلق؟ وما هو أول مخلوقات الله عز وجل القلم أم العرش؟

وقد اختلف العلماء من المتقدمين والمتأخرين حول هذه المسألة، وكان مدار خلافهم حول فهم نصوص من الشريعة اختلفوا في مدلولاتها والجمع بينها، وبين نصوص أخرى يوهم ظاهر بعضها التعارض.

ومن أكثر ما اختلف العلماء حوله في هذه المسألة الحديث الذي رواه عبادة[3] بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، والذي جاء فيه: "أول ما خلق الله القلم"[4]، ودلالة هذا الحديث

(١) سورة البقرة: آية ٢١- ٢٢.

(٢) سورة الروم: آية ٢٧.

(٣) هو: عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، صحابي، من الموصوفين بالورع، شهد بيعة العقبة، وكان أحد النقباء، وبدرا وسائر المشاهد، ثم حضر فتح مصر، وهو أول من ولي القضاء بفلسطين، مات بالرملة أو بيت المقدس، روى ١٨١ حديثًا اتفق البخاري ومسلم على ستة منها، وكان من سادات الصحابة. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٤٤٨)، وتهذيب التهذيب (٥/ ١١١).

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٥٠)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ١٠١)، وأحمد في مسنده (٥/ ٣١٧)، والطبري في جامع البيان (٢٩/ ١٧)، وفي التاريخ (١/ ٣٢)، والطيالسي في مسنده (ص ٧٩)، والترمذي من طريق الطيالسي وقال: حسن غريب (٥/ ٤٢٤)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (٤/ ٦١٥)، والأجري في الشريعة (١/ ٥١٤)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٢٤١) لابن مردويه، كلهم من طرق عن عبادة بن الصامت، والحديث صححه بجميع طرقه الألباني في ظلال الجنة (٤٨/ ٥١)، وحسنه لغيره الدكتور عبد العزيز العثيم في تعليقه على كتاب القدر لابن وهب (ص ١٢٤)، والدكتور جاسم الفهيد في النهج السديد (ص ٢٦١).

على بدء الخلق، وما هو أول المخلوقات؟ هل هو القلم كما هو الظاهر من نص الحديث، أم أن هناك ما سبقه في الخلق؟

للإجابة على هذا السؤال عقدت هذا البحث لبيان هذه المسألة المتعلقة بهذا الحديث قاصدًا إلى تأصيلها بجمع أطرافها لا بسط ما فيها من روايات متعددة؛ إذ المسألة فيها من الأحاديث والروايات ما يصعب حصره في هذا البحث؛ فلذلك قصدت إلى إيراد أهم الروايات التي كان الخلاف حولها، والتي يفيد اختلاف ألفاظها زيادة في المعنى، وما تركت ذكره -وهو الأكثر- فغالبه يدور حول ما ذكرته، أو هي طرق أخرى ذكرها غير من ذكرتهم من المصنفين.

وقد انتهجت سبيلاً لبحث المسألة أن أورد الحديث مدار الخلاف، ثم أتبعه بذكر الخلاف فيه، وأقوال العلماء وأدلتهم، كل فيما ذهب إليه، ثم أعطف على ذلك بإيراد مسالكهم في حل ما ظهر فيه التعارض بين النص موضوع البحث، وبين غيره من النصوص المتعلقة بالمسألة، ثم أذكر ترجيح ما ظهر لي صحته في المسألة بأدلته، مستعينًا في ذلك كله بالله الرحمن، وأسأله تعالى الفتح والعون والتيسير والتوفيق.

أولاً: ألفاظ الحديث:

ورد حديث عبادة بن الصامت بثلاثة ألفاظ وكلها ثابتة صحيحة من طرق عدة أخرجها جمع من الأئمة في مصنفاتهم، وسوف أورد تلك الألفاظ بإيجاز، وهي على النحو التالي:

عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، عن أبيه، أنه دخل على عبادة وهو مريض يرى فيه الموت فقال: يا أبت أوصني واجتهد. قال: اجلس، فقال: إنك لن تجد طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تؤمن بالقدر خيره وشره.

قلت: وكيف لي أن أعلم خيره وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول شيء خلق الله تعالى القلم، فقال له: اجر، فجرى تلك الساعة إلى يوم القيامة بما هو كائن، فإن مت وأنت على غير ذلك دخلت النار"[1].

(١) الحديث أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٥٠)، وابن بطة في الإبانة ح: ٨٩ (٢/ ١٠١)،=

وروى هذا الحديث بلفظ آخر من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: "أول ما خلق الله تعالى القلم فقال: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.."[1].

وروي أيضًا بلفظ آخر: "لما خلق الله القلم قال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى قيام الساعة"[2].

هذه هي أهم روايات الحديث، وفي ألفاظها اختلاف، ومن هذا الاختلاف نشأ لدي بعض العلماء توهم التعارض بين نصوص الحديث، بينما البعض الآخر استطاع أن يوفق بين نصوص حديث عبادة بن الصامت وما تدل عليه من مدلولات، وكان حاصل خلافهم في مسألة أول ما خلق الله تعالى على قولين:

ثانيًا: تفصيل الأقوال في المسألة:

أحدهما: أن القلم هو أول المخلوقات، والآخر: أن القلم ليس أول المخلوقات، بل هناك ما سبقه في الخلق، وفيما يلي بيان هذين القولين:

= وأحمد في مسنده (٥/ ٣١٧)، وابن جرير في التاريخ (١/ ٣٢)، والطيالسي في مسنده ح: ٥٧٧ (ص ٧٩)، والترمذي في سننه (٥/ ٤٢٤)، واللالكائي في أصول الاعتقاد (٤/ ٦١٥)، والأجري في الشريعة (١/ ٥١٤)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٢٤١) لابن مردويه، والحديث صححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة ح: (١٣٣) بهذا اللفظ.

(١) الحديث أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٨)، قال الألباني في ظلال الجنة: هذا حديث صحيح (١/ ٤٨)، ومن حديث ابن عباس أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٠١)، والطبري في التفسير (٢٩/ ١٥)، وابن بطة في الإبانة (٢/ ١٠٥) والآجري في الشريعة (١/ ٥١٧)، والطبراني في الأوائل (١/ ٢٢)، وابن أبي عاصم في الأوائل (١/ ٦٠)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ١١٧)، وعزاه الهيثمي للبزار في مجمع الزوائد (٧/ ١٩٠)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ح: (١٣٣).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير – (١٢/ ٦٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد رجاله ثقات- (٧/ ١٩٠).

القول الأول: قول من قال: إن القلم أول المخلوقات.

وهو قول أخذ بظاهر الحديث في روايته بلفظ: "إن أول ما خلق الله القلم" ولفظ: "أول ما خلق الله القلم".

ومقتضى قولهم أن ظاهر الحديث يقتضي القول بأولية القلم في الخلق، وفي الصورة الأولى ورد مقترنًا بـــ (إن) المؤكدة، وهذا يدل على تأكيد أولية القلم في الخلق.

وأما الصورة الثانية "أول ما خلق الله القلم"؛ فاختلفوا في ضبط كلمة: (أول) على قولين: أحدهما الرفع، والآخر النصب. ووجه الرفع: الابتداء، ووجه النصب: الظرفية والزمان.

فمن قال: إن القلم هو أول المخلوقات، ذهب إلى ترجيح الرفع الذي يقتضي ما ذهبوا إليه من قول.

واختلفوا كذلك في ضبط كلمة (القلم) في الحديث؛ أتكون مرفوعة أم منصوبة؟ ووجه الرفع وقوعها خبرًا لـــ (إن) في رواية "إن أول ما خلق الله القلم"، والخبرية للمبتدأ في رواية "أول ما خلق الله القلم".

قال صاحب مرقاة المفاتيح: "(إن أول ما خلق الله القلم) بالرفع، هو ظاهر وروي بالنصب، قال بعض المغاربة: رفع القلم هو الرواية، فإن صح النصب كان على لغة من ينصب خبر إن..، وقال المغربي: لا يجوز أن يكون القلم مفعول (خلق)؛ لأن المراد أن القلم أول مخلوق"[1].

ويقول مكمل أضواء البيان: "فعلى رواية الرفع –للقلم- يكون هو أول المخلوقات، ثم جرى بالقدر كله، وبما قدر وجوده كله"[2].

وممن قال بهذا القول في الحديث –أن القلم أول المخلوقات- ورجحه: الإمام الطبري[3]،[4].

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢٦٨).

(٢) أضواء البيان (٩/ ١٨).

(٣) هو: محمد بن جرير بن يزيد، الإمام العلم المجتهد، أبو جعفرالطبري، من أهل أمل طبرستان، مولده سنة (٢٢٤ هـ)، وكان من افراد الدهر علمًا وذكاء وكثرة التصانيف البديعة، منها: تفسيره المسمى بـ"جامع البيان في تأويل آي القرآن"، وكتابه "التاريخ"، و "تهذيب الآثار" وغيرها، توفي سنة (٣١٠ هـ)، انظر: تاريخ بغداد (٢/ ١٦٢)، سير الأعلام (١٤/ ٢٦٧) شذرات الذهب (٢/ ٢٦٠).

(٤) انظر قوله في تفسيره (٢٩/ ١٤-١٥)، وقد ذكر ذلك عنه ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٣٣٤).

القول الثاني: قول من قال: إن القلم ليس أول المخلوقات، بل هو مسبوق بغيره. واستدلوا على ذلك بأمور يمكن إجمالها فيما يلي:

١-لفظ الحديث: "إن أول ما خلق الله القلم"، "أول ما خلق الله القلم" ليس فيه ما يدل على أن القلم كان أول المخلوقات إطلاقًا؛ لأن الراجح في ضبط كلمة (أول) هو النصب على الظرفية في رواية "أول ما خلق الله القلم"، وضبط كلمة (القلم) النصب على المفعولية لـ (خلق) في الروايتين، فيكون المعنى أن الله خاطب القلم في أول خلقه له، فأمره بكتابة المقادير؛ لا أن المراد بالحديث أولية القلم في الخلق.

قال صاحب مرقاة المفاتيح: "وإذا جعل -القلم- مفعولاً لخلق أوجب أن يقال: اسم إن ضمير الشأن، و (أول) ظرف، فينبغي أن تسقط الفاء من قوله (فقال) إذ يرجع المعنى إلى أنه قال له: اكتب حين خلقه، فلا إخبار بكونه أول مخلوق"[١].

٢-قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[٢].

ووجه الدلالة في الآية أن الله تعالى ذكر خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ يقتضي أن يكون خلق العالم قد تم والعرش على الماء، والقلم داخل فيما خلقه الله في الأيام الستة، بل هو أول ما خلق منها[٣].

٣-الأحاديث الصحيحة التي وردت في السنة النبوية، والتي تدل على أن القلم مسبوق بغيره في الخلق، ومن ذلك:

ما أخرجه البخاري[٤] .....

(١) مرقاة المفاتيح (٢٦٨).

(٢) سورة هود آية ٧.

(٣) بغية المرتاد (٧١).

(٤) هو: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، الجعفي، أبو عبد الله البخاري، جبل الحفظ، وإمام الدنيا في فقه الحديث، رحل في طلب العلم إلى بلدان كثيرة، له مصنفات كثيرة، أشهرها: الجامع الصحيح،=

عن عمران[١] بن حصين أن النبي ﷺ قال: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض"[٢].

ووجه دلالة الحديث أن الله تعالى كتب في الذكر ما كتبه بعد أن كان عرشه على الماء وقبل أن يخلق السماوات والأرض[٣]، ومعنى ذلك أن العرش والماء قد خلقا قبل القلم.

ووجه آخر في الاستدلال وهو ترتيب العطف في الحديث، إذ هو يدل على أن هذه الأمور وقعت مرتبة، فكان العرش والماء، ثم الكتابة، ثم خلق السماوات والأرض[٤].

ما أخرجه مسلم[٥] في الصحيح عن عبد الله[٦] بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله

=والتاريخ الكبير، وغيرهما، وقد ألفت في ترجمته كتب مستقلة، مات سنة (٢٥٦ هـ). انظر: تاريخ بغداد (٢/ ٤)، سير الأعلام (١٢/ ٣٩١)، تقريب التهذيب ص (٤٦٨).

(١) هو: عمران بن حصين بن عبيد، أبو نجيد الخزاعي، من علماء الصحابة، أسلم عام خيبر سنة ٧ هـ وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة، وبعثه عمر إلى أهل البصرة ليفقههم، وولاه زياد قضاءها، وتوفي بها، وهو ممن اعتزل حرب صفين، له في كتب الحديث ١٣٠ حديثًا. انظر: تذكرة الحفاظ (١/ ٢٨)، وتهذيب التهذيب (٨/ ١٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: {وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده} رقم الحديث (٣١٩١).

(٣) بغية المرتاد (ص ٧٨).

(٤) انظر: فتح الباري (٦/ ٣٣٤).

(٥) هو: الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، أبو الحسن، حافظ، من أئمة المحدثين، ولد بنيسابور، وتوفي في ظاهرها، أشهر كتبه صحيح مسلم، جمع فيه ١٢ ألف حديث، كتبها في ١٥ سنة، وهو أحد الصحيحين المعول عليهما في كتب السنة عند أهل السنة انظر: تذكرة الحفاظ (٢/ ١٥٠) والتهذيب (١٠/ ١٢٦).

(٦) هو عبد الله بن عمرو بن العاص، أبو محمد، صحابي جليل أسلم قبل أبيه، كان يصغر أباه بثلاث عشرة سنة، مات سنة ٦٨ هـ وعمره قد تجاوز التسعين سنة. انظر: تقريب التهذيب لابن حجر (ص ٣١٥)، والجمع بين رجال الصحيحين لابن القيسراني ت ٥٠٧ هـ- (١/ ٢٣٩) -الطبعة الأولى- ١٣٢٣ هـ- حيدر آباد الدكن- الهند.

ﷺ يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة" قال: "وعرشه على الماء"[1].

ووجه الدلالة في الحديث أن كتابة المقادير كانت قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وقد كان قبل ذلك العرش على الماء، فدل ذلك على أسبقية العرش والماء على القلم في الخلق، قال النووي: "وقوله: وعرشه على الماء، أي قبل خلق السماوات والأرض"[2].

وممن رجح القول بأسبقية العرش على القلم في الخلق: الإمام ابن بطة[3]، وابن تيمية[4]، وابن حجر[5]، والنووي[6]، .....

(١) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ورقم الحديث (٢٦٥٣) (١٦/ ١٥٤).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٥٥).

(٣) هو: عبيد الله بن محمد العكبري، من فقهاء الحنابلة كان أمارًا بالمعروف صالحًا، له مؤلفات، توفي بعكبرا بالقرب من بغداد سنة ٣٨٧ هـ. ينظر طبقات الحنابلة (٢/ ١٤٤)، وانظر قوله في الإبانة (٥/ ٢٨٠).

(٤) هو: الإمام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، الحافظ الدمشقي، الناقد الفقيه المجتهد، شيخ الإسلام، وناصر علوم الكتاب والسنة، محيي مذهب السلف، قامع أهل الأهواء والبدع. ولد في حران، وذهب به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر وتخرج عليه أعلام من العلماء مثل: ابن القيم، وابن عبد الهادي وابن كثير، والذهبي وغيرهم، وألف مؤلفات كثيرة منها: كتاب "الإيمان"، و "منهاج السنة"، و "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"، وألفت في سيرته كتب مستقلة، توفي سنة (٧٢٨ هـ). انظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (٤/ ١٤٩٦)، شذرات الذهب (٦/ ٨٠)، الأعلام (١/ ١٤٠)، (٢٦٠)، الفتاوى لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه (٧/ ١٣٧). وانظر قوله في بغية المرتاد (٧٦).

(٥) هو أحمد بن علي العسقلاني أبو الفضل المشهور بابن حجر، إمام حافظ فقيه محدث، من مؤلفاته فتح الباري شرح صحيح البخاري والدرر الكامنة وغيرها كثير توفي رحمه الله سنة ٨٥٢ هـ. انظر: شذرات الذهب لابن العماد (٧/ ٢٧٠)، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (٢/ ٣٦-٤٠)- الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ- دار الجيل -بيروت- لبنان. وانظر قوله في فتح الباري (٦/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٦) هو يحيى بن شرف محيي الدين أبو زكريا النووي الدمشقي الشافعي، كبير الفقهاء في زمانه، ولد عام=

والطحاوي[1].

ثالثًا: مسالك العلماء في الحديث:

سلك علماء السلف مسالك عدة لحل الإشكال المتوهم من ظاهر هذا الحديث الدال على أولية القلم في الخلق، مع غيره من النصوص الدالة على غير ذلك، وكان حاصل ذلك ما يلي من مسالك:

١- مسلك الترجيح:

وهو ترجيح أحد القولين على الآخر، وقد تبين فيما سبق بيان أصحاب كل قول حسب ما ظهرت لهم دلالته.

ومرجحو القول الثاني أكثر ممن رجح القول الأول كما أورد ذلك ابن حجر في الفتح إذ قال: "وحكى أبو العلاء الهمداني أن للعلماء قولين في أيهما خلق أولا العرش أو القلم، قال: والأكثر على سبق خلق العرش، واختار ابن جرير[2] ومن تبعه الثاني"[3].

ويقول الطحاوي: "اختلف العلماء: هل القلم أول المخلوقات أوالعرش؟ على قولين ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمداني، أصحهما: أن العرش قبل القلم، لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة" قال: "وعرشه على الماء"[4]، فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش،

=٦٣١ هـ بنوى وقدم دمشق، صاحب المصنفات المشهورة، منها: شرح صحيح مسلم، ورياض الصالحين، والمجموع، وغيرها كثير، ولي مشيخة دار الحديث بالأشرفية ودرس بالمدرسة الإقبالية، توفي عام ٦٧٦ هـ. انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ٢٧٨)، وتذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي ت ٧٤٨، (٤/ ١٤٧٠)، الطبعة الثانية -حيدر آباد الدكن. دائرة المعارف العثمانية -الهند- ١٣٣٣ هـ، وانظر قوله في شرح صحيح مسلم (١٦/ ١٥٥).

(١) انظر قوله في شرح الطحاوية (٢٦٥).

(٢) انظر قول ابن جرير في تفسيره (٢٩/ ١٤-١٥)، وفي تاريخ الطبري (١/ ٢٨).

(٣) فتح الباري (٦/ ٣٣٤).

(٤) تقدم تخريجه ص (٧).

والتقدير وقع عند أول خلق القلم"[1].

٢- مسلك الجمع بين النصوص وإزالة ما قد يتوهم من التعارض بينها:

والجمع إما لنص الحديث بألفاظه، وإما لنص الحديث مع غيره من النصوص التي يوهم ظاهرها التعارض معه.

أما الأول فهو الجمع بين روايتي الرفع والنصب في الحديث، وممن سلك هذا المسلك العلامة ابن عثيمين رحمه الله إذ يقول: " (إن أول ما خلق الله القلم) بالرفع، وروي بالنصب، فعلى رواية الرفع يكون المعنى: أن أول ما خلق الله هو القلم، لكن ليس من كل المخلوقات... وأما على رواية النصب، فيكون المعنى: أن الله أمر القلم أن يكتب عند أول خلقه له، يعني: خلقه ثم أمره أن يكتب، وعلى هذا المعنى لا إشكال فيه"[2].

وأما الجمع بين نص الحديث وغيره من النصوص فوجهه أن يقال: إنه يمكن الجمع بين النصوص الدالة على أولية خلق القلم والنصوص الدالة على أسبقية العرش بأن تحمل نصوص القلم على أن المراد بها ما خلق من هذا العالم المشهود، الذي خلقه الله عز وجل في ستة أيام، ابتدأ الخلق فيها بالقلم، فخلقه ثم أمره بكتابة مقادير الخلائق إلى قيام الساعة، وكان ذلك بعد خلقه للعرش والماء، فيكون القلم أول ما خلق بعد العرش والماء[3].

وإلى ذلك يشير ابن حجر بقوله: "فيجمع بينه[4] وبين ما قبله[5] بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش، أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة، أي أنه قيل له: اكتب، أول ما خلق"[6].

وإلى ذلك أيضًا يشير الإمام ابن بطة العكبري بقوله: "فكان أول ما خلق الله عز وجل من

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص (٢٦٥).
(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٣١٠-٣١١).
(٣) انظر في ذلك: بغية المرتاد ص (٧٩)، مرقاة المفاتيح (١/ ٢٦٩).
(٤) يريد حديث أول ما خلق الله القلم.
(٥) يريد حديث (كان الله ولم يكن شيء قبله.. وكان عرشه على الماء) ليكون المتقدم تخريجه ص (٦).
(٦) فتح الباري (٦/ ٣٣٤).

شرعة: القلم"[1].

ومراده رحمه الله بالشرعة، كل ما شرعه الله من أمر وقدره في الكون بعد خلق العرش.

وقد أشار شارح الطحاوية إلى إمكان الجمع بين هذا الحديث وحديث ابن عمرو من جهة اللغة فقال: "ولا يخلو قوله: (أول ما خلق الله القلم..) إما أن يكون جملة أو جملتين، فإن كان جملة -وهو الصحيح- كان معناه: أنه عند أول خلقه له قال له: (اكتب)، كما في اللفظ: (أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب) بنصب "أول" و "القلم"، وإن كان جملتين وهو مروي برفع "أول" و "القلم"، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، فيتفق الحديثان؛ إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم"[2].

رابعًا: الترجيح:

بعد هذا البيان في إيراد جملة الأقوال فيما يتعلق بحديث أول ما خلق الله القلم وإيراد الخلاف فيه بين العلماء، فإن الذي يترجح لي في المسألة -والله أعلم- هو القول بأن العرش سابق على القلم في الخلق؛ وذلك لعدة أوجه:

١-دلالة اللغة على ذلك؛ إذ الظاهر عندي قول من قال بنصب كلمة (أول) على الظرفية في لفظ الحديث "أول ما خلق الله القلم"، وبنصب (القلم) على المفعولية في الروايتين.

٢-ظهور أدلة من قال من العلماء بأسبقية خلق العرش على القلم، وهي أدلة من صريح القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية كما تقدم، وقد جمع الإمام ابن القيم[3] الأقوال في المسألة في نونيته ورجح القول بأسبقية العرش في الخلق على القلم حيث يقول:

(١) الإبانة لابن بطة (٥/ ٢٨٠).
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص (٢٦٥).
(٣) هو: الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية الحنبلي، سمع من كبار مشايخ زمانه، لازم شيخ الإسلام حتى سجن معه بالقلعة، له مصنفات في علوم شتى تداولتها جميع الطوائف، من أنجب تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، توفي وله من العمر ستون سنة في شهر رجب سنة ٧٥١ هـ. ينظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٤/ ٢٣٤-٢٣٥)، والدرر الكامنة لابن حجر (٤/ ٢١-٢٣).

والناس مختلفون في القلم الـــذي كتب القضاء به من الديـــان
هل كان قبل العرش أو من بعده قولان عند أبي العلي الهمذاني
والحق أن العرش قبـــل لأنـــه عند الكتابة كان ذا أركان[1]

٣-مما يؤيد هذا المسلك الراوية التي سقتها في أول هذا المبحث ولفظها: "لما خلق الله القلم قال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى قيام الساعة"[2]، فهذه الراوية ليس فيها ذكر الأولية، بل ذكر فيها أنه لما خلق الله القلم أمره بالكتابة، وهذا يحتمل أوليته في الخلق، ويحتمل عدمها، ونفس هذا الاحتمال ينفي الجزم بأن يكون القلم هو أول المخلوقات؛ لأن الدليل إذا تطرق الاحتمال إلى معناه سقط الجزم بوجه واحد فيه.

٤-أن ترجيح رواية الرفع، يحتاج معها إلى شيء من التأويل في معنى الحديث تخلو منه رواية النصب، إذ قد يتبادر إلى الذهن من رواية الرفع حين يقال: إن أول ما خلق الله القلم -ويكون المعنى أوليته في الخلق- أن هناك زمنًا معينًا نعلمه ابتدئ بالخلق فيه، وهذا قد يعني أن الله خلق بعد أن لم يكن خالقًا، وهذا مخالف لمذهب أهل السنة في هذا الباب.

قال ابن عثيمين رحمه الله: "لكن على المعنى الأول الذي هو الرفع: هل المراد أن أول المخلوقات كلها هو القلم؟ الجواب: لا؛ لأننا لو قلنا: إن القلم أول المخلوقات، وإنه أمر بالكتابة عندما خلق، لكنا نعلم ابتداء خلق الله للأشياء، وأن أول بدء خلق الله كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ونحن نعلم أن الله عز وجل خلق أشياء قبل هذه المدة بأزمنة لا يعلمها إلا الله عز وجل، لأن الله عز وجل لم يزل ولا يزال خالقًا، وعلى هذا، فيكون: إن أول ما خلق الله القلم يحتاج إلى تأويل ليطابق ما علم بالضرورة من أن الله تعالى له مخلوقات قبل هذا الزمن.

قال أهل العلم: وتأويله: أن المعنى: أن أول ما خلق الله القلم بالنسبة لما نشاهده فقط من المخلوقات، كالسموات والأرض.. فهي أولية نسبية"[3].

(١) شرح قصيدة ابن القيم (١/ ٣٧٥).
(٢) تقدم تخريجه ص (٧).
(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٣١١).

الخاتمة

وبعد، فهذا ما يسر الله عز وجل جمعه في هذه المسألة من النصوص، ومن أقوال أهل العلم، وبسط الخلاف فيها، ثم الترجيح بين هذه الأقوال، واختيار ما ظهرت صحته لظهور أدلته.

ومما سبق بيانه يمكن أن نشير إلى أهم النتائج المستفادة من خلال دراسة هذه المسألة على ضوء حديث عبادة بن الصامت فيما يلي:

١-اختلاف العلماء حول هذه المسألة مداره حول فهم نصوص القرآن من الكتاب والسنة واختلافهم في فهم مدلولاتها.

٢-نتيجة لاختلاف ألفاظ حديث عبادة بن الصامت نشأ لدى البعض من العلماء توهم التعارض بين نصوص الحديث.

٣- سلك العلماء مسالك عدة منها مسلك الترجيح ومسلك الجمع بين النصوص لحل الإشكال المتوهم من ظاهر الحديث الدال على أولية القلم في الخلق مع غيره من النصوص الدالة على غير ذلك.

٤- كتابة المقادير كانت قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وقد كان قبل ذلك العرش والماء.

٥- القول الراجح في مسألة البحث هو القول بأن العرش والماء سابق على القلم في الخلق، لدلالة النصوص من القرآن والسنة على ذلك.

هذا، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

المراجع

* الإبانة الصغرى، ابن بطة، تحقيق: رضا نعسان، دار أطلس، الرياض، ط١.

* أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف: محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، دار النشر: دار الفكر للطباعة والنشر-بيروت- ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.

* الأوائل لابن أبي عاصم، ط: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي- الكويت، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي.

* الأوائل للطبراني، ط: مؤسسة الرسالة، دار الفرقان- بيروت- ١٤-١٣، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد شكور بن محمود الحاجي أمرير.

* بغية المرتاد لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: سعيد اللحام، ط: دار الفكر العربي-بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠.

* تاريخ الطبري: ط: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.

* التفسير الكبير للرازي، ط: دار الكتب العلمية-بيروت- ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى.

* جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تأليف: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر، دار النشر: دار الفكر- بيروت- ١٤٠٥.

* الجامع الصحيح، الإمام البخاري، ت: د/ مصطفى ديب البغا، دار القلم، دمشق، بيروت، ط١.

* الجامع الصحيح، مسلم بن حجاج النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٤ هـ.

* السنة، ابن أبي عاصم، تحقيق: الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ هـ.

* سنن أبي داوود: ط: دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

* سنن الترمذي، ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين.

* شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثامنة (١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م).

* صحيح مسلم بشرح النووي، ط: دار الخير، الطبعة الثالثة (١٤١٦ هـ- ١٠٩٦م).

* صحيح وضعيف سنن أبي داود للألباني، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية- المجاني- من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالاسكندرية.

* فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ط: دار الريان- القاهرة، الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ-١٩٩٨ م).

* مجمع الزوائد للهيثمي، ط: دار الريان للتراث/ دار الكتاب العربي- القاهرة، بيروت- ١٤٠٧ هـ.

* مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي، دار الكتاب- بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٧ هـ.

* مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين، المكتبة الشاملة (قرص مضغوط).

* مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي بن سلطان محمد القاري، دار النشر: دار الكتب العلمية- لبنان/ بيروت-١٤٢٢ هـ- ٢٠٠١ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: جمال عيتاني.

* المسند: الإمام أحمد بن حنبل، ط: دار الفكر.

* المعجم الكبير للطبراني، ط: مكتبة الزهراء- الموصل- ١٤٠٤- ١٩٨٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.

* * *

فهرس البحث

مقدمة ٦٩١
أولًا: ألفاظ الحديث ٦٩٣
ثانيًا: تفصيل الأقوال في المسألة ٦٩٤
ثالثًا: مسالك العلماء في الحديث ٦٩٩
الخاتمة ٧٠٣
المراجع ٧٠٤
الفهرس ٧٠٦

* * *